الرؤى الرابعة عشر

ما وراء الأقنعة

بسمة محمد علي

"إذا قررت أن تطّلع على أسرار أحدهم، فكن على استعداد تام للصدمات"

بسمة محمد علي

obeikan.com

ما وراء الأقنعة

كان ينظر لغرفة جده الذي توفي قبل ولادته بعامين تقريبًا، بترقب شديد، وهو مختبئ خلف ذلك الستار، وما إن أغلقت والدته باب الغرفة وهمت بأن تغلقه بالمفتاح، حتى صاح بصوت عالٍ: أمي، أمي.

وأوقع أحد الأطباق في الأرض، فتركت والدته المفتاح في الباب واتجهت مُسرعة نحو مصدر الصوت في فزع، فجرى "صالح" سريعًا نحو الغرفة ثم دخلها وأغلق الباب على نفسه من الداخل بالمفتاح الذي التقطه من الباب بخفة أثناء دخوله.

إنه "صالح" صبي في الحادية عشر من عمره، مُهذب، ذكي وسابق لعمره، هادئ، منطوٍ بعض الشيء، شديد الملاحظة، فتح "صالح" إحدي الأدراج في مكتب جده، ثم أخرج منها نظارة غريبة الشكل وهمس لنفسه بسعادة:

لطالما تمنيت ارتداء تلك النظارة، فالجميع يقول إن وراء تلك النظارة سرًّا ولغزًا مات ودُفن مع جدي - رحمه الله - لكنني سأكشفه بإذن الله، ثم جلس على أريكة وثيرة بجانب المكتب، وهو يُقلب النظارة في يده يمينًا ويسارًا مُتأملًا إياها في شرود.

أفاق من شروده على صوت طرقات الباب، فخبأ النظارة في ملابسه، وفتح الباب ليجد والدته التي بدأت في توبيخه لدخوله الغرفة دون الحصول على إذنها أو إذن والده،

- آسف يا أمي.

قالها " صالح " ليُهدئ من روعها ثم أستأذنها وفر مسرعًا نحو غرفته حتى لا تكتشف والدته أنه أخذ النظارة.

في المساء، طرق "صالح" باب غرفة والده الذي كان جالسًا يحتسي القهوة ويقرأ إحدى الكتب، فأذن له بالدخول فدخل " صالح " بهدوء ثم جلس أمام والده قائلًا: أبى، هل يمكنني أن أتحدث معك قليلًا؟

أومأ الوالد برأسه وهو مازال يُتابع قراءة الكتاب، ففرك "صالح" يده بتوتر وهو يقول: أريد أن أرتدي نظارة جدي.

ترك والده الكتاب ونظر إليه باهتمام قائلًا: ولماذا؟

- أشعر أن رؤيتي أفضل أثناء ارتدائها.

ثم تابع بفضول: من فضلك يا أبي أخبرني قصة تلك النظارة، ولماذا يقول الجميع أن تلك النظارة لغز؟

شرد والده وهو يحكي له قائلًا: كان جدك كثير القراءة، كان أحيانًا لا ينام ليُنهي قراءة أحد الكتب.

وفي يوم من الأيام بدا غريبًا، كان ينظر لنا باستغراب ودهشة، وكأنه يكتشف عنا أشياء جديدة أو ما شابه، وعندما سألناه عن السبب لم يجب، وظل هكذا لمدة شهرين حتى توفى بعد دخوله في نوبة اكتئاب حاد، لم يعرف أحد سببها، لكن ما تأكدت منه أن تلك النظارة كانت سبب وفاته، فأخفينا النظارة في أشياء جدك حتى لا يعثر عليها أحد.

ثم تابع وهو ينظر إليه بابتسامة: وها أنت قد وجدتها.

- معني ذلك أنك تسمح لي بارتدائها؟

- إن لم تر شيئًا مريبًا أو غريبًا بها فلا مانع لديَّ.

في صباح اليوم التالى، كان " صالح " يجلس على إحدى مقاعد المترو متأملًا وجوه من حوله بجوار والده، لاحظ "صالح " أن وجوه الناس مكتوب عليها كلمات، فخلع النظارة ليتأكد مما يراه ليجد أن الكلمات اختفت، فارتداها مرة أخرى لتظهر الكلمات، فتوقع أن تلك الكلمات هي ما يفكر به الشخص، أو لعلها ما فعلوه من جرائم سابقة.

سمع " صالح " صوت فتي يتحدث بصوت مسموع لمن حوله، يتحدث عن ثرائه وغنائه، ويصف الجنة الجميلة التي سوف يعدها لتلك الفتاة التي أمامه لتوافق على الزواج منه، وتشاركه في مشروع العمر الذي يُجهز له، نظر " صالح " إليهما بنظارته ثم خلعها، والتفت لأبيه ضاحكا وهو يقول: أقسم لك يا أبي أن هذا الشاب كاذب، فهو يعمل سائسًا في جراج، ويريد أن يستولي على ميراث هذه الفتاة المسكينة المخدوعة في هذا الشاب.

- تأدب يا ولد، ولا تتدخل في مثل تلك الأمور.

ثم تابع: وكيف عرفت كل هذا من الأساس؟؟

فرد عليه "صالح " بعبارته: صبرًا يا أبي سأحكي لك كل شيء.

ارتدي "صالح" النظارة مرة ثانية، فوقعت عيناه على شخص أمامه يُحادث مديره بعبارات غاية في المدح والفخر بإنجازاته الرائعة.

فخلع نظارته وقال: عجبًا لعدوي النفاق التي انتشرت بين الناس يا أبى، فهذا الرجل طامع في منصب مرموق عند هذا المدير.

- "صالح"؟، أأصبحت تعلم الأسرار والغيب أم أن لك شيطان يتبعك؟؟

قالها والده متسائلاً، فرد عليه " صالح " قائلًا: صبرًا يا أبي سأحكي لك كل شيء.

ثم تابع: هيا بنا يا أبي فقد اقتربت محطة النزول، عبر " صالح " بوابات الخروج هو وأبوه وأسرعا بدخول المسجد المقابل لمحطة المترو لحضور الجمعة، وكانت الخطبة غاية في البلاغة والتأثير في الحاضرين حتى أنها أبكت معظم الناس من الكلمات المؤثرة التي ينطق بها خطيب المسجد.

أدى الصبي الصغير الصلاة هو ووالده، وعندما همَّ بالخروج وجد جمعًا من الناس يلتف حول الشيخ ذي اللحية البيضاء الكثيفة، والبعض يصافحه ويلقي عليه بعض التساؤلات المتعلقة به أو بالخطبة، وهو يجيب بثقة زائدة أنه تخرج في كبري الكليات الدينية العريقة، وأنه قرأ أمهات الكتب التي لم يقرأها أحد، ويبالغ بتفانٍ مُظهرًا أمام الناس التقوي والورع.

ارتدي " صالح " النظارة ونظر نحوه وانتظر برهة ثم خلعها في عنف وهو يضرب كفا بكف وهو يقول لأبيه:

كاذب هذا الرجل إنه لم يحصل حتى على الشهادة الإعدادية، بل رسب فيها بجدارة، وكل ثقافته أخذها من بعض المُتطرفين الذين يدعون إلى العنف والإرهاب ويسمون أنفسهم رجال دين، هذا الرجل يا أبي كان بائعًا فيما سبق على عربة فول، ثم زودته الجماعة المنضم إليها ببعض الأموال فأصبح تاجرًا للعسل والجبن،

وكل تفكيره منصب على جمع الأموال، وهو يتوارى خلف عباءة الدين، والله هذا حرام يا أبي.

- "صالح."

قالها الأب مزمجرًا، فرد عليه "صالح" قائلًا: سوف تثبت لك الأيام صحة كلامي يا أبى.

ثم عاد ينظر للشيخ مرة أخرى في وجوم تام، وبعد ثوان خلعها قائلًا: حتى أخوه تاجر للمخدرات، وقد شاركه هذا الشيخ في بعض عمليات السلب والنهب، والله إن الدين بريء من مثل هؤلاء الذين لا يصح لهم أن يعتلوا منبر رسول الله ﷺ، هيا بنا يا أبي.

خرج الاثنان من المسجد وسارا في الطريق، والأب ينظر إلى اللافتات الكثيرة المعلقة في الشوارع للمرشحين لعضوية مجلس الشعب، ثم إلى ابنه قائلًا:

سندخل الآن إلى إحدي الندوات لمرشحي المفضل، وإياك أن تنطق بحرف واحد عليه، فهو مثال للشرف والأمانة والنُبل، وهو معروف بين الناس جميعًا، فهو ثري وغير معقول أن ينظر إلى مال حرام، وفي الحقيقة هو شخص خدوم للجميع.

دخل الاثنان القاعة وجلسا في الصف الأخير لكثرة الزحام بالقاعة.

obeikan.com

– إخواني في الدائرة، سوف أكون خادمًا للجميع، وظهر من لا ظهر له في هذه الدائرة، سوف أقضي على البطالة والفقر خلال شهر واحد، سأجعل دائرتكم قطعة من أوربا لتفخروا بها أمام العالم، وزجاجة زيت وكيس سكر هدية لكل من حضر في هذه القاعة، وهذا هو عربون المحبة بيني وبينكم، كانت تلك خطبة المرشح وفور انتهائه علت الهتافات في القاعة: بالروح بالدم نؤيد الأستاذ أبو صحنين.

ارتدى "صالح" نظارته ونظر إلى عضو المستقبل للدائرة . وكعادته خلعها بعنف قائلًا لأبيه: أريد أن أقول لك شيئًا يا أبي لكن لا داعي للتوبيخ أو الضرب، أرجوك.

نظر الأب إليه ضاحكًا قائلًا: معني ذلك أنك تعترض عليه، أليس كذلك؟

_ بلى، تعال معي يا أبي نقترب من المحيطين منه، فأحدهم تاجر كبير للآثار، وآخر تاجر كبير للمخدرات، وطبيب كبير صاحب مستشفى دولية للتجارة في الأعضاء البشرية، وأقسم لك يا أبي أنه شريك لهم في تلك الأعمال الإجرامية الشنيعة.

استهزأ الأب بكلامه وقال ساخرًا: هيا بنا لنعود للمنزل.

ضحك "صالح" قائلًا: والسكر والزيت يا أبى؟

توجه "صالح " إلى غرفته ليُهيئ نفسه للذهاب إلى الدرس، وبالفعل بعد نصف ساعة كان يجلس على إحدى المقاعد في الساحة الكبيرة منتظرًا المُعلم.

بعد مرور ساعة تأخير حضر المُعلم، وبدأ في الشرح ولم يفهم " صالح "، وبالطبع لم يستطع أن يقول ذلك لأنه إذا فعل سيتلقى عقابًا شديدًا، فخطر في باله أن يرتدي النظارة ويرى ما هو مكتوب بداخله.

فقرأ أنه: يفكر دائمًا في جمع المال، يتلقى الرشاوى من أجل تسريب الامتحانات، عضو في شاومينج للإجابة على الامتحانات المسربة، والذي لا يعرفه أحد عنه أنه منذ سنوات قد فُصل من عمله، لأنه حصل على أموال طائلة من مجموعة من الطلبة الراسبين بمدرسته من أجل الحصول على النجاح بلا حق، فلوى شفتيه في تذمر طفولي وهو يكاد يبكي، وقال لنفسه بحزن: أهذا هو مُعلمي؟ أهذا الذي من المفترض أن يكون قدوتي وقدوة طلابه؟ أهذا من سيصنع الأجيال القادمة؟

وفي أثناء عودة "صالح" لمنزله وجد رجلًا متسولًا رث الثياب، ذري الهيئة، يطلب في تذلل مساعدة من الناس، أعطاه أحد المارة عشرة جنيهات، فابتسم المتسول أثناء ارتداء النظارة فقرأ الآتى: الحمد لله لقد أتممت الآن عشرة ملايين وعلي أن أسرع في الغد لإيداع المبلغ في البنك حتى أحصل على عائد الأرباح منه.

انصرف الصبي ساخطًا على هذا المتسول، ثم توجه نحو إحدي سيارات الأجرة التي تقف أمام إحدى البنايات الحديثة، يجلس أمامها صاحب البناية ومهندس الحي، فدار في نفس "صالح" أن يرتدي النظارة وينظر إلى صاحب العمارة، فوجد المكتوب بداخله: المهندس ابن.....

ألم يكفه ما أخذه من رشوة لإصدار ترخيص للمبنى؟

هنا شعر " صالح " أنه لو ظل يقرأ ما على جبائن الناس سيصاب حتما بالاكتئاب كجده وسيموت.

عاد " صالح " إلى منزله ودخل غرفته سريعًا دون أن ينطق بكلمة واحدة، وخلع النظارة ونظر إليها طويلًا ثم فتح إحدي أدراج مكتبه ووضعها فيه، وأغلق الدرج بمفتاح صغير وهمس لنفسه بتماسك: لن أرتديها بعد الآن، فقد بدت الحياة في وجهه سوداء، وتغيرت نظرته لمعظم أفراد المجتمع من حوله، فلقد أثارت فضوله لمعرفة الكثير من الحقائق، ونسي أن الله جعل الخير والشر معًا داخل كل إنسان منا.

و يمر يوم بعد يوم و "صالح" ينظر للدرج الذي وضع به النظارة، وهو يمنع نفسه من استخدامها، رغم شعوره بأنه في أمس الحاجة إليها.

وبعد مرور ما يقرب من سبعة عشر عاما كان "صالح" يعد

نفسه للذهاب إلى فتاة أحلامه ليطلب يدها للزواج، وقعت عيناه على الدرج الذي وضع فيه النظارة ففتحه ليعرف محتواه ليجد النظارة، وتذكر ما كان يراه بها، فأبتسم بخفة وهم بأن يلتقطها ويرتديها ليرى ما الذي يدور بنفس فتاة أحلامه، لكنه تراجع وهو يحدث نفسه قائلًا: لا، لا يا "صالح" إياك أن ترتديها، أنسيت وعدك لنفسك بأنك لن ترتديها مرة اخرى، أنسيت؟ دع كل شيء يمر بسلام، يجب أن ترى فتاة أحلامك بقلبك لا بالنظارة.

ثم ألقى بالنظارة على الأرض وهو يحطمها بقدمه حتى تحطمت تمامًا، فنظر إليها بألم ثم تركها وخرج، وبالفعل تزوج الفتاة ومرت عليه الأيام بحلوها ومرها كما تمر بجميع الناس، وكم من مرة راودته نفسه أنه لو لم يحطم النظارة لارتداها الآن، ولكنه كان يتراجع عن تفكيره هذا خوفًا من صدمات الحقيقة المرة، وفي يوم من الأيام جلس "صالح يحكي لابنه قصة النظارة، والذي يبلغ من العمر الآن سبع سنوات، وفي أثناء ذلك شرد وهو يتذكر آخر حوار له مع والده وهو على فراش الموت.

– لقد كنت وأنت صغير يا "صالح" ترتدي نظارة جدك وتنظر إلى الناس وكأنك تكشف الغيب وما يدور بداخلهم، وعندما أسألك عن شيء تقول لي: صبرًا ستثبت لك الأيام صدق كلامي يا أبي.

صالح ضاحكًا: لقد صعقت يا أبي عندما كنت أقرأ الحقائق التي تدور بداخل الناس، وهم يرتدون أقنعة النفاق، ويمثلون على بعضهم، وكأنهم ملائكة تسير على الأرض بلا خطايا.

ثم تابع: هل حدث شيء يا أبي يستدعي هذا الحديث؟ قال الأب وهو يومئ برأسه بضَعْفٍ مؤكدًا كلام صالح: نعم، أتتذكر صاحب الخطبة البليغة التي أدمعت الناس في المسجد لقد تم القبض عليه بعد أن شارك في سرقة العديد من السيارات، والانضمام إلى جماعات مُخربة للوطن، وقد نُشرت قصته في الصحف، أتتذكر أيضًا عضو السكر والزيت الذي كان يقول إنه خادم الجميع لم نعد نراه في الدائرة يا بني، لقد استولى على قطعة أرض كبيرة في إحدى المناطق الراقية، ولا نراه إلا في التلفاز يتحدث عن الدائرة بكلام لا صلة له بالواقع، والمعلم أصبح من أباطرة المراكز التعليمية.

رد " صالح " عليه: نعم يا أبي، والمهندس أيضًا تم القبض عليه بعد أن انهارت البناية، ومازال العرض مستمرًّا يا أبي، ومازال الكثير منا يتقن دوره في التمثيل في مسرحية الحياة، وهو يرتدي قناع النفاق، لقد حطمت النظارة يا أبي وتركت الأمر كله لله وحده.

تمت بحمد الله

obeikan.com

بسمة محمد علي

اسمي بسمة محمد علي.

مواليـــد / ١٣ نـــوفمبر ٢٠٠٣ م في الزيتون بالقاهرة.

_ طالبة في الشهادة الإعدادية.

الهوايات / القراءة، ولا سيما للكاتبة منى سلامة، والكاتب الكبير نجيب محفوظ، والكاتبة حنان لاشين.

طموحاتي المستقبلية / أن أصبح كاتبة عالمية مثل الكاتب يوسف إدريس، وأيضًا أن أصبح مثل العالم أحمد زويل.

و مثلي الأعلى هي جدتي – رحمها الله –.

للتواصل معي عبر موقع التواصل الاجتماعي"فيس بوك":

https://www.facebook.com/profile.php?id=100006835938057

obeikan.com